المهايل ويخرجهُ من الذين كانوا يعبدون هذه الانصاب مع أن الرجل يحلف بها ويصرّح بانها « معبودة » ولا يُعقل أن أحداً يحلف بمعبود غيره اذا كان يعتقده باطلاً . وزد على ذلك أنه يقول : وأنصاب « لنا » بضمير المتكلمين فجعل نفسه في جملة أصحاب تلك الانصاب ووصفها « بالعادية » أي القديمة اثباتاً لرسوخ عبادتها في قومه وان هذه العبادة انتهت اليه عن أسلافه الاولين . ولكن الظاهر ان حضرة الاب كلما عثر على من شُكَّ في دينه أو جُبل أمره عده نصرانياً تكثراً بالباطل وتبجحاً بما ليس وراءه طائل » اه (الضياء ٥ : ٢١٨)

ثم أيجهل حضرة الاب ان من التغالبة من اتبع سجاح بنت الحارث بن سويد ابن عقفان المتنبئة فليراجع الطبري ١ : ١٩١١ يرَ انهم تركوا التنصر مع رئيسهم المذيل ابن عمران وانضووا اليها . وعليه فلم تكن كل تغلب نصارى الباقي للآتي

بغداد أحد القراء

تسامح العظماء

تابع ماقبله

اتصل ثابت بن قرة الحراني بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين وأقطعه ضياعاً جميلة وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام ويكون بدر الامير قائماً والوزير وهو جالس بين يدي الخليفة . قال ابو اسحق الصابي وهو ممن حظي عند الامراء ايضاً : ان ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان في دار الخليفة للرياضة وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان ثم نثر المعتضد يده من يد ثابت بشدة ففزع ثابت فان المعتضد كان مهيباً جداً فلما نثر يده من يد ثابت قال له: يا ابا الحسن وكان في الخلوات يكنيه وفي الملاء يسميه سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت

عليها وليس هكذا يجب ان يكون فان العلماء يعلمون ولا يعلمون

وكان سنان بن ثابت بن قرة في خدمة المقتدر بالله والقاهر وخدم ايضاً بصناعة الطب الراضي بالله . وكان ابنه ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة في خدمة الراضي بالله ايضاً وخدم بصناعة الطب المتقي بن المقتدر بالله والمستكفي بالله والمطيع لله . واتصل ابو الحسن الحراني ثابت بن ابراهيم بن زهرون بعضد الدولة وكان له منه الجاري السني . وكان غالب طبيب المعتضد بالله وكان أولاً عند الموفق طلحة بن المتوكل وارتضع سائر أولاد المتوكل من لبن اولاد غالب فكان يبرُّ بهم فلما تمكن الموفق من الامر أقطعه ونوّله وأغناه وكان له مثل الوالد وعالج الموفق من سهم كان اصابه في ثندوته وبرأ فأعطاه مالاً كثيراً وأقطعه وخلع عليه وقال لغلمانه من اراد اكرامي فليكرمه وليصل غالباً فوجّه اليه مسرور بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب ووجه اليه سائر الغلمان مثل ذلك وصار اليه مال عظيم ولما قبض على صاعد وعبدون أخذ لعبدون عدة غلمان نصارى مماليك فمن اسلم منهم اجري له رزق وترك ومن لم يسلم منهم بعثه الى غالب وكان عدد من أنفذ اليه سبعين غلاماً أزمة وغيرها فلما ورد عليه معهم رسول من قبل الحاجب قال غالب : أيُّ شيء أعمل بهؤلاء ؟ وركب من وقته الى الموفق فقال : هؤلاء يسترقون مال ضيعتي مع رزقي . فضحك الموفق وتقدم الى اسمعيل زيادة في اقطاعه الحرسيات وكانت ضياعاً جليلة تغل سبعة آلاف دينار وأوعدها له بخمسين الف درهم في السنة وبعد الموفق طلحة خدم لولده المعتضد بالله ابي العباس احمد وكان مكيناً عنده حظياً في ايامه وكان المعتضد يحسن الظن به ويعتمد على مداواته

وخدم ابو عثمان سعيد بن غالب المعتضد بالله بصناعة الطب وحظي عنده وكان كثير الاحسان اليه والانعام عليه . وعوّل الملوك على صاعد بن بشر في العلاج ولطالما حصل له مال عظيم وحشمه الخلينة ووزيره وزكاه وقدمه على جميع من كان في زمانه . وكذلك ديلم داود بن ديلم خدم هذا المعتضد بالله في الطب وخصّ به فكانت التوقيعات تخرج بخط ابن ديلم لمحله منه ومكانته وكان يتردد الى دور المعتضد وله منه الاحسان الكثير والانعام الوافر . ومنهم ابو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي كان منقطعاً الى الوزير علي بن عيسى . ومنهم عيسى طيب القاهر كان عمدته وركن اليه ويفضي اليه باسراره . وكان اسحق بن شليطا خادماً بالطب للمطيع لله . وفنون المتطبب كان يختص بخدمة بختيار ويكرمه ويعده امراً عظيماً . ونظيف القس الرومي استخدمه عضد الدولة في البيمارستان الذي انشأه ببغداد وخلع عليه خلعاً سنية . وكذلك ابو غالب بن صفية تقدم في زمن المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله . وكذلك امير الدولة بن التلميذ من رجال المستضيء بامر الله وبلغت به الأنفة والغنى انه كان لا يقبل عطية الا من خليفة أو سلطان ، مدحه السيد النقيب الكامل بن الشريف الجليل والشريف ابو يعلى محمد بن المهارية العباسي بقصيدتين غراوين وذكرا افضاله وكماله كما مدح الشريف الرضي ابا اسحق الصابي كثيراً وكانت بينهما مودة اكيدة . وكذلك مدحه الطغرائي وابن جكينا وغيرهما كما مدح الشريف ابن المهارية ابا الفرج يحيى ابن صاعد بن التلميذ من أسرة امير الدولة وكان له « جماعة من الانساب كل منهم متعلق بالفضائل والآداب »

ومنهم اوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي اليهودي كان في خدمة المستنجد بالله . ومنهم ابو الخير المسيحي طبيب الناصر لدين الله . وابن نصر بن المسيحي حظيَ أيضاً امره هذا الخليفة عقيب برئه من مرض على يده ان يدخل دار الضرب ويحمل من الذهب معها قدر أن يحمله ففعل به ذلك ثم أتته الخلع والدنانير من أمّ الخليفة ومن ولديه الاميرين محمد وعلي والوزير نصير الدين أبي الحسن بن مهدي العلوي الرازي ومن سائر كبار الامراء بالدولة فحصل من العين الدنانير عشرين ألف دينار ومن الثياب والخلع جملة وافرة وألزم الخدمة وفرضت له الجامكية السنية والراتب والاقامة . وكان ابو الفرج صاعد بن هبة الله ابن توما طبيب نجم الدولة ابي اليمن نجاح الشرابي وارتقت به الحال الى ان صار وزيره وكاتبه ثم دخل الى الناصر وكان يشارك من يحضر من أطبائه في اوقات امراضه ثم حظي عنده الحظوة التامة وسلم اليه عدة جهات يخدم بها وكان بين يديه فيها عدة دواوين وكتّاب قال ابن القفطي : انه كان بمنزلة الوزراء واستوثقه الناصر على حفظ اموال خواصه وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفية الى وزرائه ويظهر له في كل وقت

وخدم ابو الحسين صاعد بن هبة الله بن المؤمل المسيحي بالدار العزيزة الناصرية الامامية وتقرب قرباً كثيراً . وكسب بخدمته وصحبته الاموال وكانت له الحرمة الوافرة والجاه العظيم . ووصل ابو الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار بالطب الى ان قبل له محمود الملك الارض وكان الملك محمود عظيماً جداً . وتقدم ابو سهل المسيحي عند سلطان خراسان . وأجرى

الرشيد على منكه الهندي رزقاً واسعاً وأموالاً كافية . وخدم اسحق بن سليمان الاسرائيلي الامام ابا محمد عبيد الله المهدي صاحب إفريقية بصناعة الطب . وكان يحيى بن اسحق الطبيب في صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله الاندلسي واستوزره وولي الولايات والعمالات وكان قائد بطليوس زماناً وكان له من الناصر محل كبير كان ينزله منزلة الثقة ويتطلع على الكرائم والخدم . وهرون بن موسى الاشبوني خدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب واسحق بن قسطار من أحبار اليهود خدم بالطب الموفق مجاهداً العامري وابنه اقبال الدولة علياً . وحسداي بن اسحق من أحبار اليهود ايضاً خدم بالطب الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله . وكان ابن بكلارش يهودياً من اكابر علماء الاندلس في صناعة الطب وخدم بها بني هود

وحظي بليطيان الطبيب بطريرك الاسكندرية على النصارى الملكية في أيام الرشيد ووهب له مالاً كثيراً وكتب له منشوراً في كل كنيسة في يد اليعقوبية مما أخذوها وتغلبوا عليها ان ترد اليه فرجع بليطيان الى مصر واسترد من اليعقوبية كنائس كثيرة . وخدم ابراهيم بن عيسى بالطب الامير احمد بن طولون وكذلك سعيد بن توفيل . وكان اسحق بن ابراهيم بن نسطاس في خدمة الحاكم بامر الله ويعتمد عليه في الطب . وكان موسى ابن العازار في خدمة المعز لدين الله العلوي وكان في خدمته ايضاً ابنه اسحق بن موسى المتطبب وكان جليل القدر عند المعز ومتولياً أمره واغتم المعز لموت اسحق لموضعه منه ولكفايته وجعل موضعه اخاه اسمعيل بن موسى وابنه يعقوب بن اسحق . وكان ابو الفتح منصور بن سهلان بن

مقشر طبيب الحاكم بامر الله ومن الخواص عنده وكان العزيز ايضاً يستطبه ويرى له ويحترمه وكان متقدماً في الدولة الفاطمية . وكان الحقير النافع من أطباء الحاكم الخاص وكان ابن مقشر مكيناً في الدولة الفاطمية حظياً عند الحاكم بلغ منه أعلى المنازل وأسناها وكان له منه الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة ولما مرض ابن المقشر عاده الحاكم بنفسه واطلق لمخلفيه مالاً وافراً

وخدم أفرائيم بن الزفان الخلفاء الذين كان في زمانهم بمصر وحصل من جهتهم من الاموال والنعم شيئاً كثيراً . وكان ابن جميع الاسرائيلي من أطباء الملك الناصر صلاح الدين وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده عالي القدر نافذ الامر يعتمد عليه في صناعة الطب . وخدم ابو البيان بن المدور الخلفاء المصريين في آخر دولتهم ثم خدم صلاح الدين يوسف وكان يرى له ويعتمد على معالجته وله منه الجامكية الكثيرة والافتقاد المتوفر وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف فاطلق له الناصر في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل اليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلفه خدمة وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل اليه نحو عشرين سنة . وكان الرئيس بن هبة الله الاسرائيلي من خدمة الخلفاء المصريين بالطب وكانت له منهم الجامكية الوافرة والصلات المتوالية . وخدم الموفق بن شوعة الاسرائيلي الملك الناصر بالطب لما كان بمصر وعلت منزلته عنده . وممن حظي في أيام هذا ايضاً وأيام أخيه الملك العادل ابي بكر بن أيوب ابو المعالي بن تمام اليهودي . وكان السلطان صلاح الدين ايضاً يرى لابي عمران الرئيس موسى الاسرائيلي ويستطبه وكذلك ولده الافضل علي وهو الذي يمدحه القاضي

السعيد بن سناء الملك بقوله :

أرى طب جالينوس للجسم وحده وطب أبي عمران للعقل والجسم
فلو انه طب الزمان بعلمه لابراه من داء الجهالة بالعلم
ولو كان بدر التم من يستطبه لتم له ما يدعيه من التم
وداواه يوم التم من كلف به وأبرأه يوم السرار من السقم

وكان ابراهيم بن الرئيس موسى في خدمة الملك الكامل محمد بن ابي بكر بن ايوب . وكان ابو سليمان داود بن ابي المنى بن ابي فانة الطيب حظياً عند خلفاء مصر . وكذلك ابنه ابو سعيد بن ابي سليمان جعله الملك العادل في خدمة ولده الملك المعظم واكرمه غاية الاكرام وأمر أن لا يدخل قلعة من قلاعه الا راكباً مع صحة جسمه فكان يدخل في قلاعه الاربعة كذلك وهي قلعة الكرك وقلعة جعبر وقامة الرها وقلعة دمشق . وخدم أبو سعيد بالطب ايضا الملك الناصر والملك العادل . وكان ابو شاكر بن ابي سليمان مكيناً عند السلاطين جعله الملك العادل في خدمة ولده الملك الكامل فبقي في خدمته وحظي عنده الحظوة العظيمة وتمكن عنده التمكين الكثير ونال في دولته حظاً عظيماً وكانت له منه اقطاعات ضياع وغيرها ولم يزل يفتقده بالهبات الوافرة وكان الملك العادل يعتمد عليه وكان يدخل في جميع قلاعه وهو راكب . وكان ابو الفضل بن ابي سليمان طبيباً للملك المعظم في الكرك ثم خدم الملك الكامل . وكان عيسى الرقي المعروف بالتفليسي في خدمة سيف الدولة بن حمدان يأخذ أربعة ارزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين . وأنعم صلاح الدين على سكرة

الحلبي المتطبب وخلع عليه وأقطعه اراضي مؤبدةً

وخدم موفق الدين بن المطران بالطب الملك الناصر صلاح الدين وحظي في ايامه وكان رفيع المنزلة عندهُ عظيم الجاه وكان يحجب عندهُ ويقضي اشغال الناس ونال من جهته من المال مبلغًا كثيراً قال ابو الظاهر اسمعيل وكان يعرف ابن المطران ويأنس به : ان العُجب والكبر الذي كان يغلب على ابن المطران لم يكن على شيء منه في اوقات طلبه العلم وقال انه كان يراهُ في الاوقات التي يشتغل فيها بالنحو في الجامع يأتي اذا تفرغ من دار السلطان وهو في ركبة حفلة وحواليهِ جماعة كثيرة من المماليك الترك وغيرهم فاذا قرب من الجامع ترجل وأخذ الكتاب الذي يشتغل فيه في يدهِ أو تحت ابطهِ ولم يترك احداً من الغلمان يصحبه ولا يزال ماشياً والكتاب معه الى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه فيسلم عليه ويقعد بين الجماعة وهو بكيس ولطف الى ان يفرغ من القراءة ويعود الى ما كان عليهِ ثم انه اسلم فزوجه صلاح الدين احدى حظايا داره وترقت حاله عند سلطانه الى ان كاد يكون وزيراً وحصلت له اموال جمة من أمراء الدولة في حال مباشرته لهم في امراضهم وتنافسوا في العطاء له

وممن خدم صلاح الدين ايضاً بالطب ابو منصور النصراني وابو النجم النصراني وابو الفرج النصراني وخدم هذا الملك الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين ثم صار أولاده خدمة اولاد الملك الافضل. وخدم ابو الحجاج يوسف الاسرائيلي بالطب الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين وكان يعتمد عليه وخدم ايضاً الامير فارس الدين ميمون القصري . وكان

عمران الاسرائيلي حظياً عند الملوك واعتمدوا عليه ونال من جهتهم الاموال الجسيمة والنعم التي تفوق الوصف ولم يخدم احداً من الملوك في الصحبة ولا يقيد معهم في السفر وحرص به الملك العادل بأن يستخدمه في الصحبة فما فعل وكذلك غيره من الملوك

وكان موفق الدين يعقوب المسيحي خدم الملك المعظم عيسى وصار معه في الصحبة وكان حسن الاعتقاد فيه حتى انه كان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وغيرها فينتفع بها ويحمد عواقبها وقصد الملك المعظم ان يوليه بعض تدبير دولته والنظر في ذلك فما فعل واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط وكان قد عرض للحكيم يعقوب في رجليه نقرس وكان يثور به في اوقات ويألم بسببه وتعسر عليه الحركة فكان الملك المعظم يستصحبه في أسفاره معه في محفة ويفتقده ويكرمه غاية الاكرام وله منه الجامكية السنية والاحسان الوافر

وخدم صدقة السامري بالطب الملك الاشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن ايوب وبقي معه سنين كثيرة في الشرق وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه كل الاكرام ويعتمد عليه وله منه الجامكية الوافرة والصلات المتواترة . وكان مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري شمس الحكماء في خدمة الملك الناصر صلاح الدين وخدم ايضاً لعز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب وخدم بعده لولده الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه وحظي في ايامه ونال من جهته من الاموال والنعم شيئاً كثيراً وكان يستشيره في أموره ويعتمد عليه في احواله

هكذا كان عظماء الاسلام يعاملون أهل ذمتهم من نصراني ويهودي وسامري ومجوسي يبوحون لهم بأسرارهم ويطلعونهم على خُويصة انفسهم ويوسدون اليهم معمات أمورهم ويأمنونهم على حرمهم وأرواحهم ويعتدون عليهم هباتهم واحساناتهم ويرفعون منزلتهم ومكانتهم لا ينظرون في ذلك الى نحلة ولا مذهب ولا يعتدون بمخالف ولا بموافق بل يتدبرون الكفآت ويختارون الاصلح والانسب وقد قابل أولئك المقربون ساداتهم بصنوف الامانة وخدموهم فأحسنوا خدمتهم وقلما خان منهم الا بعض افراد فسدت فِطَرُهم واختلت عقولهم واحلامهم وضلوا عن سواء السبيل

حكم وخواطر

من ترك شغله للوكلاء ضاع عليه النصف اذا ربح ودفع من ماله الضعف اذا خسر

ما احتاج انسان مداجاة اعدائه الا من فسولة أصدقائه

كما لا ترجو صداقة الكذّاب فلا ترجُ صداقة الجبان لان الكذب والجبن أخوان أبوهما الضعف

أدلُّ الدلائل على حماقة المرء جمع الضدين على بغضه والصادق الحكيم يجمع الاضداد على حبه

اكثر ما تكون المواعظ كالخزف الصيني في البيوت تُحفظ ولا تستعمل خمود الهمم عند اشتعال اللمم

انما آثر الناس العدو العاقل لا لانه لا يضر بل لانه أبلغ في الضرر